من رمضاء مكة الى مصيف الطائف

بقلم الاب فرديناند توتل اليسوعي

آب اللهاب ! في هذا الشهر يحتدم اوار الحر على سطح المناطق المعتدلة من شمالي الكرة الارضية ، فتتوق فيها الصدور الى العيش في الجبال العالية وفي الارياف الواسعة ، حيث الهواء اصفى والجو افسح منه في المدن المكتظة بالبنايات الآهلة بالسكان

ثقيلة هي وطأة القيظ على بلاد الشام ومصر والعراق لكنها اثقل واشد في الجزيرة العربية الواقعة في المناطق الحارة من البسيطة ، في طحراء تصليها اشعة الشمس نارًا لا يهمد اوارها ، فتخترق اعماق تربتها وتمتص آخر ما رسب فيها من رطوبة اغاثتها به السماء في فصل الشتاء !

قد يلجأ مواطنونا من الحر الى الجبال في لبنان ، او الى الرمال على شواطئ البحر ، او الى البساتين في ضواحي مدن الداخلية . اما سكان مكة فاين مثلهم في الصيف ؟ هو الطائف . واني لاتكلم على تلك البلاد ، لا كاني زرت مكة والطائف ، « واهل الحرمين يبالغون في مراقبة الاجانب الذين يفدون الى بلادهم ، فلا يتعدى جدة وينبع وصنعاء جنوباً ، ومحطة العلا شمالاً ، احد من الاجانب بالمرة ؛ وان فعل ، فما هو الا مورّط بنفسه الى حتفه من اهل البلاد » (١ لكني استعصم من اللوم بقول الشاعر (٢ :

« فانني ان ارى الديار بطرفي فلعلي ارى الديار بسمعي »

فاهتدي ، والقراء ، الى بلاد التهامة والى جبال السراة ، بما كتب فيها (٣ من قديم وحديث متوخياً وصفها كما كانت في القرون الاولى للهجرة . ولا يخفى

---

١) رحلة الحجاز للبتنوني ص : ٤٧ ٢) وفاء الوفاء للسمهودي ١ : ٣

٣) راجع لامنس الطائف ؛ ومكة قبيل الهجرة في المجموعة Mélanges de l'Université S' Joseph : 1922-1924

على بصير ما في هذا البحث من الافادة للوقوف على احوال التاريخ العربي وجغرافيته ؛ وعلى الله الاتكال في الحلّ والترحال

رمضاء مكة

« ربنا اني اسكنت من ذريتي بوادٍ غير ذي زرع عند بيتك المحرّم ؛ ربنا ليقيموا الصلاة ، فاجعل أفئدة من الناس تهوي اليهم ، وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون » (القرآن ١٤ : ٤٠)

هذه الآية تلخص اخبار مكة وتصف حالتها الجغرافية . مكة او ام القرى موقعها في التهامة في جزيرة العرب في الحجاز الجنوبي على مسافة ٧٠ كيلومتر من البحر الاحمر ، وهي مبنية على شكل الهلال في وادٍ « غير ذي زرع » تكتنفه الجبال الجرداء وتتالله اشعة الشمس اللاذعة من غير ما يلطفها ظل شجر ظليل

في قاع ذلك الوادي مركز الكعبة ، محجة العرب في الجاهلية والاسلام ، وهي في وسط المسجد ، يحيط بها المطاف ، وحولها اتخذ عظماء قريش مساكنهم وهم يُدعون لذلك قريش البطاح ، فرقاً بينهم وبين سكان ظواهر مكة

« لهم غار البطحاء من جنب مكة وردمه يبقى بالجبال القياسر » (١

« وكانت بعض دورهم ملاصقةً بالمسجد الحرام في ظهر الكعبة تفي على الكعبة بالمشي وتفيّ عليها الكعبة بالبكر » (٢

وحرّ مكة في الصيف لا يطاق ، خاصة في قعرها ، اعني في المسجد والمطاف . زاره ابن بطوطة فوصفه وقال: (١ : ٢٨٠–٢٨١) « المطاف مفروش بالحجارة الرود ، وتصير بحرّ الشمس كانها الصفحات المحماة ولقد رأيت السقائين يصبون الماء عليها فما يُجاوز الموضع الذي يُصبُّ فيه الماء الا ويلتهب الموضع من حينه واكثر الطائفين في ذلك الوقت يلبسون الجوارب »

---

٢) الاغاني ١٣ : ١٦٤١

٣) الازرقي : اخبار مكة ص : ٢٦٣ .

وقد حاول ابن بطوطة الطواف حول الكعبة حافياً فذاق من العذاب الوانا قال :

« وصلت الطاف ، واردت استلام الحجر الاسود ، فلحقني لهب تلك الحجارة ؛ واردت الرجوع بعد تقبيل الحجر ، فما وصلته الا بعد جهد عظيم ، ورجعت فلم اطف وكنت اجعل بجادي [كسائي] على الارض وامشي عليه حتى بلغت الرواق »

وليس مناخ مكة حارًا فحسب ، بل فيها ازمة المياه دوماً. روى الازرقي (ص : ٤٤٤) انهم باعوا فيها الراوية (او القربة ، حمل الدابة) عشرة دراهم واكثر (١ وقلة المياه فيها مع شدة الحر تسبب فساد الهواء وكثرة الامراض(٢ وخاصةً الحمى المعروفة عندهم بوباء مكة وقد احتالوا عليها فاستعملوا بول الناقة دواء لها وقال الاعراب ان هذا الدواء لناجع . على انه لم يكن ليضاهي بفاعيله مفاعيل الهواء الصافي والماء الزلال

ذلك الهواء وذلك الماء قد تمتع بهما تجار العرب في رحلاتهم في العراق والشام لما شربوا من مياه دجلة والفرات واستحموا في بردى دمشق، وسرّحوا ابصارهم في روّية ارض «الخمر والخمير والديباج والحرير» وكانوا اذا عادوا الى مساكنهم في البطحاء وشعروا بضيقة النفس حدثتهم النفس بما كانوا شاهدوه فسألوا النبي ان يفرج كربتهم ؛ واليك صدى لهفاتهم كما رددته ابن هشام في السيرة النبوية (ص : ١٨٨)

« قالوا يا محمد انك قد علمت انه ليس من الناس أحد اضيق بلداً ولا اقل ماء ولا اشد عيشاً منا ، فسل لنا ربك الذي بعثك بما بعثك فليسيّر عنا هذه الجبال التي قد ضيقت علينا وليبسط لنا بلادنا وليخرق لنا فيها انهارًا كانهار الشام والعراق »

وكأني بطلبتهم قد استجيبت : لانه بالقرب من مكة قد وضع الله الطائف ومصيفها « مثل الجنة التي وعد المتقون ، فيها انهار من ماء غير آسن ، وانهار

١) وكانت قيمة الدرهم القضي توازي ثقل الثرامين والنصف او الثلاثة الثرامات

٢) راجع كتاب رحلة الحجاز للبيب البتنوني ص : ٦٣

من خمر ، لذةً للشاربين ، وانهار من عسل مصفى ولهم فيها من كل الثمرات . »
(القرآن ٤٧ : ١٦ ، ١٧)

بلاد الطائف

على سيف البحر الاحمر ، في شبه الجزيرة العربية ، تمتد سلسلة جبال من الشمال الى الجنوب اسمها جبال السراة وهي الحد الفاصل بين نجد وتهامة وفيها « الثنايا الغلاظ » وهي طرق وشعبات تخترقها تتقرب المسافات بين قبائل الداخلية وبين مدن الحجاز التجارية

في منتصف تلك السلسلة ، وبالقرب من الخط العرضي للكرة الارضية ، الواقعة عليه مكة ، فتحت يد الطبيعة جوفاً دعاه العرب وادي النمان واتبعوه بقاطعة الطائف ، وموقعه بينها وبين عرفة ؛ يشاهد فيه المسافر ارضاً طليحةً تنمو فيها الاشجار بكثرة ، ومن ثم صخوراً منتصبة كالجدران ، ترتقي شيئاً فشيئاً الى ان يبلغ ذراها الالفي متر . وفي شمالي تلك المقاطعة جبل عدلوا ارتفاعه فوق سطح البحر بعلوّ ثلاثة آلاف متر ، واسمه جبل غزوان الذي ذكره جغرافيو العرب لان المياه تجمد فيه بالشتاء فيصح فيه ما قاله ابن حوقل (ص : ٢٧)

« وليس بالحجاز فيما علمته مكان هو ابرد من رأس جبل غزوان ويبلغني انه ربما جمد الماء في ذروة هذا الجبل وليس بالحجاز موضع يجمد فيه الماء سوى هذا الموضع ، وعلى ظهر ذلك الجبل موقع الطائف »

وكانوا يقطعون المسافة بين مكة والطائف بمرحلتين او ثلاث « على الرفق والتؤدة » (١) . وفي اغلب الاحايين كانت نقطة الماء محطةً للرحال . فيجتازون البطون والحزون ويمرون بقرى ذكرها جغرافيو العرب ، وكانت عامرة في القرون الاولى للهجرة ، ثم انحطت عن عزها : منها قرية العرج مسقط رأس الشاعر العرجي الذي اسهب بذكره صاحب الاغاني ، وقرية البقيع ، وجلذان ، وقرية الوهط وقد قال فيها العجيمي :

---

١) ابن جبير ٣ : ١٢٢

« بهذه القرية مزارع وعين كبيرة الا انها الآن ضعيفة وبستانها المذكور فلم يبق على معشار ما كان عليه »

وكانت ارياف الطائف مخصبة يحرثها الفلاحون لحساب اهل الطائف او لغيرهم من اغنياء مكة

وذكر الهمذاني املاك الطائف وملاكها فاوقفنا على حالة البلاد ايام تمتعت بالامن وازدهرت بنشاط سكانها . على ان كثيراً من تلك المواضع التي ذكرها لا يكاد العلماء ، يقفون لها اليوم على اثر محقق قال(١ :

« وساكن الطائف ثقيف ؛ وبكن شرقي الطائف قوم من ولد عمرو بن العاص وواد قريب من الطائف يقال له برد ، فيه حائطان لزُبَيْدَة عظيمان يقال لموضعها وج ، وبشرقي الطائف وادٍ يقال له لية يسكنه بنو نصر من هوازن ، ومن يلي الطائف وادٍ يقال له جتن لثقيف وهو بين الطائف وبين معدن البرام ويسكن معدن البرام قريش وثقيف ، ومن قبلة الطائف ايضاً وادٍ يقال له مشربق لبني اميّة من قريش ، ووادي جلذان منقلب الى نجد في شرقي الطائف يسكنه بنو هلال ، وفي قبلة الطائف حائط ام المقتدر الذي يدعى سلامه ، وبين الطائف وبين عرفة وادي نمان ، وفيه طريق الطائف المختصرة الى مكة واما المحجة فعلى قرن المحرم »

وكانوا يضنون بالحائط الحديقة الجميلة التي احاط بها اصحابها لبناً صيانةً لمزروعاتها . وكانت تلك البقاع مشهورةً باشجارها واثمارها وخاصةً « وج » فانها امتازت بشجر الطلح والسدر وكان بضواحي الطائف كروم بذل اصحابها تعباً عظيماً في حرثها وسقايتها وقد حفظ ابن الاثير ذكر تلك العناية الحثونة والغيرة والاجتهاد في سبيل الزراعة ، في المعاهدة التي ابرمت بين الثقفيين وبين ملاكي تلك الاراضي الاولين لما احتل ثقيف الطائف وشارطوا من وجدوا فيها من السكان على ان يتقاسموا واياهم الاراضي وغلاتها فقالوا :

« نثيرها حرثاً ونغرسها اعناباً وثماراً واشجاراً ونحكظمها كظائم ونحفرها اطواءً ونملأها عمارةً وجناناً (٢

فكم بذلوا من المجهودات في حفر الآبار وفتح الترع لمجرى المياه حتى اذا

---

١) راجع صفة جزيرة العرب ص : ١٢٠

٢) الكامل ١ : ٣٨٨

انجزوا العمل وشاهدوا كرومهم المعروشة تعقد عنبها فاخروا بها واشاروا الى مياهها وقالوا :

« فان الماء ماء ابي وجدّي وبئري ذو حفرت وذو طويت » (١

وحيث يكون الاجتهاد والنشاط بجراثة الارض وريها لا تلبث ان تكتسي الارياف ثوب العز والغنى فيزداد اصحابها ولعاً بها وحرصاً عليها ولذلك لما ضرب النبي الحصار على الطائف وتهددها بتخريب الكروم هاج هائج السكان وخافوا على ما غرست ايديهم بمشقات عظيمة فارسلوا الى النبي يتوسلون اليه ان يبقي على المزارع البعيدة وإلا اذا عاث فيها العسكر فساداً فقد يكون خرق القتاد دون اصلاحها (٢

وكانوا يعقدون المعاهدات مع بدو السراة ليتالوا الحماية للحقول والمزارع من القطعان والرعيان

محصولات الطائف

« الخبز عندهم ممدوح وهم اذا فخروا قالوا منا آكل الخبز » (٣

الخبز الطري ، الخبز الابيض ، الخبز مرقوقاً او رغيفاً ، كل يوم مرات ناكله ونشبع منه وقد بارك الله القمح في بلادنا السورية واوفره واكثره . ولكن في البلاد العربية طعام العامة اللبن والتمر ، اما الخبز فهو طعام نادر لا يأكله الا الامراء والعظام وبفضله يتم فيهم العقل ويمتازون بالدهاء والحكمة على ما رواه ابن الاثير

قال في غيلان بن سلمة الثقفي الطائفي ، الذي كان هجر ستاً من نسائه بعد اسلامه ، ولم يبق عنده سوى اربع ، باس النبي محمد ، انه كان وفد على كسرى ، فدار الحديث بينهما . فقال له كسرى : اي ولدك احب اليك ؟ قال : الصغير حتى يكبر والمريض حتى يبرأ والغائب حتى يقدم ؛ فقال كسرى : ما لك

---

١) راجع ديوان عامر بن الطفيل : ٩,١٢٦

٢) راجع السيرة لابن هشام ص : ٨٧٣

٣) الجاحظ : البخلاء ، ٢٥٦

ولهذا الكلام ؟ وهو كلام الحكماء وانت من قوم جفاة لا حكمة فيهم ، فما غذاؤك ؟ قال خبز البر . قال هذا العقل من البر لا من اللبن والتمر . » (١

وكان القمح في بلاد الطائف وافرًا ويمونه البرّ على ان الطائف اشتهرت خاصة بكرومها ومنها العنب والزبيب والخمرة. الكرمة هي الشجرة المتواضعة اللطيفة ، وضعها مواطنونا اللبنانيون موضع الحب في جوار بيوتهم وعلى مدرجات جبالهم ووديانهم. الكرمة النضيرة بنت الشام كيف دخلت بلاد العرب الملتهبة ؟ دخلتها على يد امرأة يهودية ، قدّمت عيدانها هديةً لابي رغال احد زعماء الطائف (الاغاني ٤ : ٧٥) فزفتها هديةً شاميةً من بني اسرائيل الى مصيف الجزيرة الشهير . وبفضل تلك الامرأة الحقيرة اصبحت قرى السراة تُصدر العنب والزبيب والخمر الى مكة والى سائر انحاء الجزيرة

وكانت خمر لبنان وفلسطين معروفة من عشاقها في الطائف فيستوردونها . ويشربها كل منهم على صحة من قال :

ناولتها شبه مصباح مشعشعة صرفًا كأن سناها ضوء مقياس

وكانوا يجدونها تحاكي « عين الديك لماناً » . فشربوا خمر بلادنا وشربوا خمر الطائف ايضاً . على انهم كانوا يستعملون زبيب الطائف مروّقاً لمياههم الآسنة

روي عن العباس عم النبي انه كان يستغلّ من كرومه في الطائف نوعاً من الدبس يزجّه بماء زمزم الذي قال فيه الشاعر :

تباركت انهار البلاد سوانح بعذب وخصت بالملاحة زمزم (٢

وكان الخليفة عمر بن الخطاب يشرب كل يوم صباحاً عصير الزبيب ممزوجاً بالماء (٣

وظهر الاسلام وحرّم شرب الخمر فكسدت سوقها وقلت بضاعتها وارتفعت اسعارها اما عشاقها فلم يزهدوا فيها وفازت بمديح شعر العرب كما فازت به عند اليونان والرومان . ولابي محجن الثقفي خبر في ذلك نرويه عن كتاب

١) اسد الغابة ٤ : ١٢٢-١٢٣

٢) راجع الازرقي ، اخبار مكة ٧٠ : ٢٩٦، ٣٤٠

٣) راجع ابن سعد : طبقات ٦ : ١٠٥

الاغاني (١ وفيه لكاهة وافادة :

« اتي عمرَ بن الخطاب رضي الله عنه بجماعة ، فيهم ابو محجن الثقفي ، وقد شربوا الخمر ، فقال : اشربتم الخمر بعد ان حرمها الله ورسوله ؟ فقالوا : ما حرمها الله ولا رسوله ؛ ان الله تعالى يقول : ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا ، اذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات . . .

فقال عمر لاصحابه : ما ترون فيهم ؟ فاختلفوا فيه ؛ فبعث الى علي بن ابي طالب عليه السلام ، فشاوره . فقال علي : ان كانت هذه الآية كما يقولون فينبغي ان يستحلوا الميتة والدم ولحم الخنزير . فسكتوا . فقال عمر لعلي : ما ترى فيهم ؟ قال ارى : ان كانوا شربوها ، مستحلين لها ، ان يقتلوا ؛ وان كانوا شربوها ، وهم يؤمنون انها حرام ان يحدّوا [يجلدوا] .

فسألهم . فقالوا : والله ما شككنا في انها حرام ، ولكنا قدرنا ان لنا نجاة فيما قلنا . فجعل يحدّهم رجلاً رجلاً وهم يخرجون حتى انتهى الى ابي محجن . فلما جلده انشأ يقول :

ألم تر ان الدهر يبشرُ بالفتى ... ولا يستطيعُ المرء صرفَ القادرِ
صبرتُ فلم اجزعْ ولم اكُ طائشاً ... لحادثِ دهرٍ في الحكومةِ جائرِ
واني لذو صبرٍ ، وقد مات اخوتي ... ولست عن الصهباء يوماً بصابرِ
رماها اميرُ المؤمنين بحتمها ... فخلاها يكون حول المعاصرِ

فلما سمع عمر قوله « ولست عن الصهباء يوماً بصابر » قال : قد ابديت ما في نفسك ولأزيدنّك عقوبةً لإصرارك على شرب الخمر

فقال له علي عليه السلام : ما ذلك لك ، وما يجوز ان تعاقب رجلاً قال لأفعلنّ وهو لم يفعل . وقد قال الله في الشعراء : وانهم يقولون ما لا يفعلون . فقال عمر قد استثنى الله منهم قوماً . فقال : الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات . فقال علي عليه السلام : أفهؤلاء عندك منهم وقد قال رسول الله صلعم لا يشرب العبد الخمر حين يشربها وهو مؤمن »

ومات ابو محجن شاعر الخمرة وهو القائل :

اذا مت فادفني الى اصل كرمةٍ ... تروّي عظامي بعد موتي عروقها
ولا تدفنوني بالفلاة فانني ... اخاف اذا ما متُّ ألا اذوقها

وذكر صاحب الاغاني قبره فقال : « رأيت قبره قد نبتت عليه ثلاثة اصول كرم قد طالت واثمرت وهي معروشة » (٢

ولم تكن بلاد الطائف ارض خمر وخمير فحسب ، بل كانت جنةً ذات افنان فيها من كل فاكهة زوجان (٣ تزدهي بانواع الاثمار من زيتون ورمون وتين ودراقن وسفرجل ورمان وبطيخ . واذا ورد الربيع واكتست الاشجار بالزهور خرج النحل عليها واستغلّ سكرها المطر ثم اخرجه « من بطنه شراباً مختلفاً

١) الاغاني : ٢١ ، ٢١٩ ٢) الاغاني : ٢١ ، ٢٢٠ ٣) القرآن : ٥٥ : ٥٢ ، ٦٨

الوانه فيه شفاء للناس » (١ وهو العسل . والعسل من اهم محصولات الطائف كانت النحل تبني منه في المغاور «بيوتاً» وكان عمال الجباية يتقاضون عليه المال . وقد تضاربت آراء الفقهاء في شأنه وكان للعسل مكانة في عوائد العرب : يمزجونه بالسمن ويسقونه الاطفال عند الفطام . وكان الملوك والامراء يفضلون عسل الطائف على سواه لانه مصنوع من زهور جبال السراة ونباتها ذي العطر العابق ، وكما انهم مزجوا عصير الكرمة والتمر بالماء تحلية له كذلك شربوا الماء معسلاً ؛ ومن العسل والبر عملوا الغالوذج وقد تعلموه على الفرس(٢

« كان ابن جذعان سيداً من قريش فوفد على كسرى فاكل عنده الغالوذ فسأل عنه . فقيل له هذا الغالوذ . قال وما الغالوذ . قال لباب البر يلبك مع عسل النحل . قال فاتوني بغلام يصنعه فابتاعه ثم قدم به مكة ثم امره فصنع له الغالوذ بمكة »

المصطافون والمصطافات بالطائف

ما اعذب موارد الماء في الصحراء الماحلة ! وما اجمل الطائف في قلب الجزيرة المحترقة باشعة الشمس ! زار الطائف بروكارت الرحالة الشهير فقال فيها : ان منظرها اجمل ما شاهده من مشاهد الشرق بعد لبنان ؛ وقال فيها الرحالة تاميزيه : بعد السير في اتون نار تصلي ، وبعد قطع اودية وبطون يابسة ناشفة : ما احلى بساتين الطائف والطف نسيمها وابلّ هواءها !

وان يكن الافرنج تغنوا بمديح الطائف مع كونهم رأوا في بلادهم من جمال الطبيعة وعظمتها وخصبها ما يسحر الالباب ولا يخطر للعرب ببال فما احرى العرب بان تنطلق السنتهم بمديح الطائف وفضائلها ، فيهيموا بها ويجعلوها محطة للنسور !

وقف الخليفة سليمان بن عبد الملك امام الطائف فلم يتمالك ان قال :

لله درّ قسي باي عشّ وضع افراخه ! (٣ وقسي مؤسس الطائف

وما عسى ان ينقص هذه الجنة ، والابل ترعى فيها فتاكل من تحتها وتاكل من فوقها على الارض كلأ كثيفاً اخضر مطيباً وعلى الاشجار اوراقاً واثماراً !

١) القرآن : ١٦ : ٧١ ٢) جاء في كتاب الأغاني : ٨ : ٩٠

٣) ابن الفقيه : ٢٢

أو ليست هي الارض المباركة التي تدرّ العسل واللبن

فلا عجب ان فاض العرب بذكر محاسنها فشبهوها ببلادنا فنعتوها « شامية الهواء باردة الماء » « فتهوى اليها الافئدة » ؛ ويؤمها المصطافون لا شك ان « من صبرَ على حرّ مكة تباعد عنه جهنمُ مسيرةَ مائة عام وتقرّبت منه الجنةُ مسيرةَ مئتي عام » (١ ولا يضيع اجر الفقراء الذين يحتملون وطأة الحر وثقله في البطحاء ابتغاء وجه الله ؛ على ان ذوي اليسر اذا ما تسنى لهم ان يهجروا رمضاء مكة الى مصيف الطائف لم يتلكأوا عن الرحيل

وكما ان اغنياء التجار ، في يومنا ، يشدّون رحالهم الى صوفر او الى ضهور الشوير او حمانا اذا ما اشتدّ الحرُّ في المدن ؛ كذلك كان عظام تجار مكة يقصدون الى الطائف . وربما حدثتهم النفس بالعودة اليها وهم بعيدون عن الاوطان. قال الاب لامنس(٢ : كان الخليفة معاوية يعلل نفسه بالامل ، وهو في قصره في الخضراء بدمشق ، بان يعود يوماً الى الطائف فيستريح فيها من هموم السياسة ومتاعبها . وكان عظماء الموظفين في اوائل العصر الهجري يعودون الى الطائف ليقضوا في المدن العربية المقدسة باقي حياتهم ويتمتعوا بما اكتنزوا لانفسهم من ثروات طائلة جمعوها في توليهم حكم اقاليم الشرق النائية . لكل منهم قصر في مكة او في المدينة يقيمون فيه ببحبوحة العيش الى ان تهب الريح السموم فتسوقهم الى مصايفهم ، منهم ابو سفيان كان يحلّ الطائفَ ويراقب حركة الزراعة في اراضيه وقطف العنب ودبغ الجلود وهو في ضيافة بناته المزوّجات . ومنهم ابو احيحة الصرّاف المتموّل ، وابو عمر بن العاص فاتح مصر ، بلغ من العمر ٨٤ سنة وكان يركب حماره ويجول في ارزاقه بين الطائف والوهط .

ولم يكن ما بينهم الشيخ الوقور والامير المهيب فقط بل كان ايضاً الفواة والشبان وطلاب الملاهي وبينهم الشاعر والمغني يتبخترون في المتنزهات ويافتون الانظار وقد حفظ لنا ذكرهم كتاب الاغاني عن لسان الشاعر العرجي الطائفي بهذا الشعر البديع (٣

١) ابن الفقيه : ١٢ ٢) Taif p. 162 ٣) ١ : ١٥٥

أمشي كما حرّكتْ ريحٌ بمائعةٌ غصناً من البان رَطْباً طلَّه الدِّيَمُ
في حلَّةٍ من طراز الروس شرنفةٍ تنفو جدّاجها ما اثرت قدمُ
فبتُّ أسقي باكواسٍ أُعلُّ بها من باردٍ طاب منه العلم والنَّسمُ
حتى بدا ساطعٌ للفجر نحسبهُ سنى حريقٍ بليلٍ حين يضطرمُ
كفُرقة القرس المنسوب قد حُبرتْ هند الجلال تلالاً وهو يلتجمُ

اما النساء بنات حوّاء أفيقصرن عن مرافقة آدم في ذلك الفردوس ؟ كلّا ثم كلّا ! بل يتسابقن والرجال الى مصيف الطائف كما تتسابق البيروتيات والمصريات ورجالهن الى مشارف عاليه وبشري . وقد حفظ كتاب الاغاني لهنّ نكتاً وحكايات يروقنا الاطلاع على بعضها وفيها ما يوقفنا على حالة المرأة في القرون الاولى للهجرة . أتتصورها أسيرة جدران بيتها لا قيمة لها ولا مقام ؟ لا تطلّ على عالم الوجود الّا من ثقب برقع يحول دونها ودون النور ! فاسمع ما جاء في الاغاني (١٠،٥٤) :

« كانت عائشة بنت طلحة لا تستر وجهها من احد ، فعاتبها مصعب في ذلك ، فقالت ان الله تبارك وتعالى وسمني بميسم الجمال ، احببت ان يراه الناس ويعرفوا فضله عليهم ، فما كنت لاستره ؛ والله ما فيّ وصمة يقدر ان يذكرني بها احد »

وفي مصيف الطائف وقفت عائشة وقفة الحكم تقضي في الشعراء ايهم الاشعر . وهناك قضت سُكينة اياماً طوالاً بين طلاق وطلاق ، وسفر واسفار ، تذكرنا بالنساء القلقات اللواتي يتنقلنَ دوماً من مصر الى الشام ومن الشام الى اوربا . سكينة حفيدة علي ، عُدّد ازواجها على الاصابع العشر ، وصفها كتاب الاغاني بالمفة . وشتان ما بين عفتها والعفة ، الفضيلة الملائكية ، التي تنصر النفس على الجسد . وكانت سُكينة أبيّة النفس ، تحكم في الازياء والجمال والادب . وكانت سلمةً ، برزةً من النساء ، تجالس الأجلّة من قريش وتجتمع اليها الشعراء وكانت طريفة مزاحة » وجاء في الاغاني : (١٤،١٦٥)

« كانت سكينة احسن الناس شعرًا وكانت تصف جمتها [او شعرها] تصفيفًا لم يُرَ احسن منه حتى عُرف ذلك وكانت تلك الجُمّة تسمى « السُكينية » وكان عمر بن عبد العزيز اذا وجد وجلًا يصفف جُمّته « السُكينية » جلده وحلقه »

فظهرت عائشة وسكينة في الطائف ومثلهما غيرهما من النساء الشريفات كنّ يفاخرن بحسنهنّ ويتصفنّ « باحسن من النار في عين المقرور » او « باحسن

من النار الموقدة في الليلة القراء » كان لهن اموال وبنايات في الطائف.

وهناك كانت تصيف ثريا وارسلت الى ابن ابي ربيعة من اعلمه بموتها فأتاها عاجلًا وقال شعره المشهور الذي رُوي بين الاصوات الثلاثة المختارة للرشيد

« تشكّى الكُميتُ الجريَ لما جهدتُه وبُدِّن ، لو يستطيعُ ان يتكلّما »

على ان الامرأة الكبيرة المستحقة دون غيرها ان تُذكر عنوانـاً للشهامة النسائية عند العرب هي سبيعة بنت عبد مناف.

كانت رحى الحرب دائرة بين مكة والطائف . ومن المألوف عندهم انهُ من لجأ من الاسرى الى بيت زعيم ودخل في حماه لم يناله مكروه . وكان مسعود بن معتب الثقفي زوج سبيعة قد ذهب الى ساحة القتال « فجعلت سبيعة توصل في خبائها ليتسع . فلما انهزمت قيس دخلوا خباءها مستجيرين ثم كثر عددهم فضاق بهم المكان . فقال لها احد جيرانها « يا عمة من تملك باطناب خبائك لو دار حوله فهو آمن» فنادت بذلك فاستدارت قيس بخبائها حتى كثروا جدًّا فلم يبق احد لا نجاة عنده الّا دار بخبائها ؛ فقيل لذلك الموضع مـدار قيس « وكان يضرب به المثل» (١)

واوفدت سبيعة اولادها الصغار ينادون في الغارّين ان من لجأ الى سرادقهم ولاذ بحمى امهم نجا . فما عتمت ان امتلأت خيمة سبيعة من الاسرى . وعاد مسعود من الوقعة ظافرًا فرأى عناقيد بشرية معلقةً باهداب حمـاه فصفح عنهم واطلق سراحهم ، فمضوا سالمين بفضل الامرأة العربية.

* * *

هذا وحسبي . فـاني أُحيي المروءة والانسانية والشهامة بشخص سبيعـة وانداده . واتمنى للبلاد العربية ان ينشأ فيها من امثال سبيعة نساء كثيرات يظهرن بشرفهنَّ وكرمهنَّ ورقتهنَّ ولطفهن على قوة الرجولية،فيظفرن بها ويحللن محل الاحترام والكرامة في المجتمع . وانما مكانة المرأة في البلاد عنوان رقيها ونجاحها.

(١) الاغاني : ١٩ ٢٩